

تقديم المترجم

استحوذت أنباء وأحداث انهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١م على انتباه كل قاطني الكرة الأرضية، ولا عجب في ذلك؛ لأن القوى العظمى تمارس التأثير الأكبر على مجريات السياسة الدولية، فضلا عن أن صعود وأفول القوى العظمى أحداث قليلة الحدوث، إن لم تكن نادرة، ولا تشهدها إلا أجيال قليلة. وقد تراوحت ردود الأفعال الشعبية والرسمية- بالطبع- بين المبتهجة والمتشائمة، بحسب مصالح الدولة وموقعها في السياسة الدولية ومن التحالفات الدولية. فكان التفاوض من نصيب دول الكتلة الغربية والدول والشعوب التي تدور في فلكها والدول التي أضررت من الاتحاد السوفيتي بشكل أو بآخر، وكان التفاوض من نصيب الدول والشعوب التي تدور في فلك الكتلة الشرقية أو أضررت من الكتلة الغربية بشكل أو بآخر.

وقد كانت الشعوب العربية من أكثر شعوب العالم اهتماما بهذا الحدث وتداعياته، وكانوا في الغالب يقعون على الجانب المتشائم. فقد نظرت غالبية الشعوب العربية، وجزء من الدول العربية، بعين الخوف والحذر إلى انهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم والسياسة الدولية، ليس فقط لأن الاتحاد السوفيتي كان يؤيد العرب في بعض قضاياهم ومواجهاتهم مع الكتلة الغربية - خاصة في أثناء قوة الاتحاد السوفيتي وليس في سنوات تراجعها الأخيرة - لكن في المقام الأول بسبب انحياز الولايات المتحدة ضد العرب في قضيتهم المركزية: فلسطين. وحتى

وإن لم يكن الاتحاد السوفيتي نصيرا قويا للعرب وقضاياهم، وإن كانت بعض الدول العربية المؤثرة قد غيرت اصطفاها منذ فترة طويلة و"انحازت" إلى الكتلة الغربية، فقد كان العرب ينظرون إلى وجود الاتحاد السوفيتي كورقة ضغط على الكتلة الغربية أو حليف ممكن في حالة الاختلاف مع الغرب. وحتى اليوم لا يزال الكثيرون في الوطن العربي يعولون على صعود قوى عظمى منافسة للولايات المتحدة، مثل الصين أو الاتحاد الأوروبي، أو حتى استعادة روسيا لقوة الاتحاد السوفيتي السابق ومكانته.

يهتم الناس في الوطن العربي، المتخصصون وغير المتخصصين على حد سواء، بقضايا صعود وأفول القوى العظمى، وسلوك إحدى هذه القوى العظمى حيال الأخرى وفي السياسة الدولية إجمالاً، وتأثير سلوك القوى العظمى على السياسة الخارجية للدول الصغرى. ومن هنا جاءت ترجمة الكتاب الحالي الذي يقدم نظرية واقعية تفسر سلوك القوى العظمى، وتقدم في طيات ذلك شروط ومواصفات القوى العظمى وعوامل صعودها وأفولها.

يقدم الكتاب نظرية بنوية للسياسة الدولية أطلق عليها المؤلف اسم "الواقعية الهجومية". ترى الواقعية الهجومية أن القوى العظمى تهتم بالدرجة الأولى بالحفاظ على بقائها في عالم لا توجد فيه هيئة أعلى من الدول لحماية إحداها من الأخرى، ولذلك تدرك الدول أن القوة هي الأساس لبقائها. ولذلك تكون القوة وزيادتها هي الهدف الدائم للقوى العظمى والدول عموماً، ولذلك أيضاً لا توجد قوى الوضع الراهن في النظام الدولي إلا نادراً، وتتمثل فقط في الدولة المهيمنة الفعلية التي يكون من مصلحتها الحفاظ على الوضع الراهن.

تقوم النظرية التي يقدمها الكتاب لتفسير سلوك القوى العظمى وتنافسها الدائم على القوة ونضالها من أجل الهيمنة على خمس فرضيات حول النظام الدولي، توجب على الدول أن تتصرف بطريقة عدوانية وتنافسية: (١) أن النظام الدولي

فوضوي بسبب عدم وجود سلطة مركزية أعلى من الدول تجبرها على احترام القانون الدولي وتسهر على حماية حقوق الدول، كبيرها وصغيرها، (٢) أن القوى العظمى تمتلك بطبيعة الحال قدرا من القدرة العسكرية الهجومية تمكنها من إلحاق الأذى أو حتى الدمار ببعضها البعض، (٣) أن الدول لا يمكن أن تتيقن من نوايا الدول الأخرى أو أن تتأكد من أن الدول الأخرى لن تستخدم قدرتها العسكرية الهجومية لمهاجمتها، (٤) أن البقاء هو الهدف النهائي للقوى العظمى، وتحديدًا أن الدول تسعى للحفاظ على سلامة أراضيها واستقلال نظامها السياسي الداخلي، (٥) أن القوى العظمى فاعل عقلائي يدرك بيئته الخارجية ويخطط استراتيجيا للبقاء فيها.

تجيب نظرية الواقعية الهجومية عن عدد من الألغاز التاريخية المهمة، من أهمها:

(١) ما تفسير الحروب الثلاث الأطول والأكثر دموية في التاريخ الحديث، وهي الحروب الثورية الفرنسية والناپليونية (١٧٩٢-١٨١٥) والحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، وهي نزاعات شاركت فيها كل القوى الكبرى في النظام؟

(٢) ما تفسير فترات السلام النسبي الطويلة في أوروبا بين عامي ١٨١٦ و١٨٥٢ وبين عامي ١٨٧١ و١٩١٣، خاصة فيما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٩٠ في أثناء الحرب الباردة؟

(٣) لماذا لم تعتمد المملكة المتحدة- التي كانت أغنى دولة في العالم في منتصف القرن التاسع عشر- إلى بناء جيش قوي ومحاوله الهيمنة على أوروبا؟ وبصياغة أخرى لماذا تصرف المملكة المتحدة بطريقة مختلفة عن فرنسا النابليونية وألمانيا الفيلهلمية وألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي التي حولت قوتها الاقتصادية إلى قوة عسكرية وسعت للهيمنة على أوروبا؟

٤) لماذا كانت ألمانيا البسماركية (١٨٦٢-١٨٩٠) عدوانية جدا بين عامي ١٨٦٢ و١٨٧٠، حيث خاضت حربين على قوى عظمى أخرى وحرب واحدة على قوة صغيرة، فيما لم تكن عدوانية مطلقا من عام ١٨٧١ إلى عام ١٨٩٠، حيث لم تخض أية حرب وسعت عموما إلى الحفاظ على الوضع الأوروبي الراهن؟

٥) لماذا شكّلت المملكة المتحدة وفرنسا وروسيا تحالفا لفرض التوازن على ألمانيا الفيلهلمية قبل الحرب العالمية الأولى، فيما فشلت في تنظيم تحالف فعال لاحتواء ألمانيا النازية؟

٦) لماذا تكاثفت اليابان ودول أوروبا الغربية مع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي في الأعوام الأولى للحرب الباردة، مع أن الولايات المتحدة خرجت من الحرب العالمية الثانية بأقوى اقتصاد في العالم واحتكار نووي؟

٧) ما تفسير إرسال القوات الأمريكية إلى أوروبا وشمال شرق آسيا على مدار القرن العشرين؟ ولماذا مثلا انتظرت الولايات المتحدة حتى أبريل ١٩١٧ لدخول الحرب العالمية الأولى، بدلا من دخول الحرب حين اندلعت في أغسطس ١٩١٤؟ ولماذا لم ترسل الولايات المتحدة قوات إلى أوروبا قبل عام ١٩١٤ لمنع اندلاع الحرب؟ وبالمثل، لماذا لم تسع الولايات المتحدة إلى فرض التوازن على ألمانيا النازية في ثلاثينيات القرن العشرين أو ترسل قوات إلى أوروبا قبل سبتمبر ١٩٣٩ لمنع اندلاع الحرب العالمية الثانية؟

٨) لماذا واصلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي حشد ترسانتهما النووية بعد أن بلغت كل منهما القدرة على الضربة الثانية ضد الأخرى؟ فمع أن العالم الذي تمتلك فيه القوتان العظميان القدرة على "التدمير المؤكد" assured deconstruction يكون عموما عالما مستقرا ويصعب الإطاحة بتوازنه النووي، لا تزال القوتان العظميان تنفقان بلايين الدولارات والروبيلات لمحاولة بلوغ ميزة الضربة الأولى.

وقد نُظِّم الكتاب حول ستة أسئلة تتعامل مع القوة. أولا: لماذا تحتاج القوى العظمى إلى القوة؟ وما المنطق الأساسي الذي يفسر تنافس الدول على القوة؟ ثانيا: ما مقدار القوة التي تحتاجها الدول؟ وما مقدار القوة الكافية؟ ثالثا: ما القوة؟ وكيف يُعرَّف هذا المفهوم المحوري وكيف يقاس؟ رابعا: ما الاستراتيجيات التي تتبعها الدول لزيادة القوة أو للحفاظ على القوة حين تهدد قوة عظمى أخرى بتغيير توازن القوة؟ خامسا: ما أسباب الحرب؟ وتحديدًا ما العوامل المتعلقة بالقوة التي تجعل التنافس الأمني يشتد ويتحول إلى نزاع مفتوح؟ سادسا: متى تلجأ القوى العظمى المهددة إلى فرض التوازن على الخصوم الخطرين، ومتى تحاول أن تمرر المسؤولية إلى دولة أخرى مهددة؟

يقدم الكتاب إجابات واضحة ومقنعة لتلك الأسئلة من منظور الواقعية الهجومية. وتجب فصول الكتاب عن تلك الأسئلة الستة الكبرى.

فبعد المقدمة التي عرض المؤلف فيها نظريته وأساسها المنطقي، يقدم الفصل الثاني نظرية فرعية حول أسباب التنافس على القوة بين الدول وأسباب سعيها إلى الهيمنة.

ويعرّف الفصلان الثالث والرابع القوة ويشرحان طرق قياسها، وذلك بغرض وضع الأساس لاختبار نظرية الواقعية الهجومية، إذ يصعب تقرير ما إذا كانت الدول تصرف في الماضي وفقا لقواعد الواقعية الهجومية بدون معرفة ما هي القوة وما هي الاستراتيجيات المختلفة التي تستخدمها الدول لتعظيم نصيبها من القوة العالمية. ونقطة الانطلاق في ذلك هي التمييز بين القوة الكامنة والقوة العسكرية الفعلية، ويأتي بعد ذلك الدفع بأن الدول تهتم بشدة بنوعي القوة كليهما. ويركز الفصل الثالث على القوة الكامنة التي تتضمن بالدرجة الأولى عدد سكان الدولة وثروتها. ويتعامل الفصل

الرابع مع القوة العسكرية الفعلية. وقد جاء هذا الفصل أطول من غيره كثيرا؛ لأنه يقدم حججا حول "أسبقية القوة البرية" و"القوة المانعة للمياه"، وهي حجج جديدة وربما تكون خلافية.

وإجمالا، يرى ميرشايمر أن القوى العظمى تتحدد بالدرجة الأولى بناء على قدرتها العسكرية النسبية. فالدولة لكي تتأهل كقوة عظمى يجب أن تمتلك أصولا عسكرية تكفي لخوض معركة كبرى في حرب تقليدية شاملة ضد أقوى دولة في العالم. ولا يُشترط أن تمتلك الدولة المرشحة القدرة على هزيمة الدولة القيادية، بل يكفيها القدرة على تحويل النزاع إلى حرب استنزاف تضعف الدولة المهيمنة إلى درجة كبيرة، حتى وإن رحمت الدولة المهيمنة الحرب في النهاية. وفي العصر النووي ينبغي أن تمتلك القوى العظمى ردعا نوويا يستطيع أن ينجو من أية ضربة نووية ضدها، فضلا عن قوة تقليدية هائلة. وإذا حققت دولة واحدة تفوقا نوويا على كل منافسيها، وهو أمر غير وارد، فإنها ستكون أقوى من الجميع إلى درجة تجعلها القوة العظمى الوحيدة في النظام. وإذا ظهرت دولة مهيمنة نووية، فسيكون توازن القوة التقليدية غير ذي شأن.

ويناقد الفصل الخامس الاستراتيجيات التي تستخدمها القوى العظمى لزيادة قوتها والحفاظ على ما تراكم لها منها، ويقدم مناقشة وافية لجدوى الحرب في زيادة القوة، ويركز أيضا على استراتيجيتي فرض التوازن وتمرير المسؤولية إلى الآخرين اللتين تستخدمهما الدول حين تواجه خصما يهدد بتقويض توازن القوة.

ويخصص الفصلان السادس والسابع السجل التاريخي للوقوف على الأدلة التي تدعم النظرية، ويعيران انتباها خاصا إلى مقارنة سلوك القوى العظمى من عام ١٧٩٢ حتى عام ١٩٩٠ للشبث مما إذا كان سلوكها يتفق مع تنبؤات الواقعية الهجومية.

ويعرض الفصل الثامن نظرية بسيطة تفسر متى تلجأ القوى العظمى إلى فرض التوازن، ومتى تلجأ إلى تمرير المسؤولية إلى الآخرين، ثم يفحص الفصل تلك النظرية في مقابل السجل التاريخي. ويركز الفصل التاسع على أسباب الحرب. وهنا أيضا يعرض المؤلف نظرية بسيطة، ثم يختبرها في مقابل السجل التاريخي.

وأخيرا يتحدى الفصل العاشر الادعاء الشائع بأن السياسة الدولية شهدت تحولا جذريا مع نهاية الحرب الباردة، وأن القوى العظمى لم تعد تتنافس على القوة. يقيم الفصل بإيجاز النظريات التي يستند إليها ذلك المنظور المتفائل، ثم يعرض كيف تصرفت القوى العظمى في أوروبا وشمال شرق آسيا بين عامي ١٩٩١ و٢٠٠٠، وأخيرا يقدم تنبؤات حول احتمالات نزاعات القوى العظمى في هاتين المنطقتين المهمتين في أوائل القرن الحادي والعشرين.

لمة كلمة أخيرة ينبغي أن يقال، وهي أنني لم أختَر هذا الكتاب بنفسني، وإنما كلفني بترجمته مركز الترجمة بجامعة الملك سعود. لكن رب تكليف يأتي على هوى المرء ويضيف إليه! فبعد أن انتهيت من ترجمة الكتاب، وتأكدت لدي قيمة العلمية وموضوعه المهم ومعالجته الشيقة والثرية وقامة مؤلفه، أؤكد سعادتني البالغة بأن يضاف هذا الكتاب إلى رصيد أعمال المترجمة. ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لمركز الترجمة بجامعة الملك سعود على ثقته وأن أتمنى للمركز مزيدا من التقدم في مهمته التنويرية السامية.

وأرجو أن يجد القارئ المتخصص الكتاب مفيدا في بحوثه وكتاباته، وأن يجد القارئ غير المتخصص شيقا وممتعا وكاشفا. فالسياسة مجال يستهوي جميع الناس، خاصة إذا كانت تتعلق بالقوى العظمى وسلوكها وسياساتها الخارجية التي تؤثر على جميع الدول والشعوب. ولما كان تاريخ القوى العظمى بداية من عام ١٧٨٩ حتى

مطلع القرن الحادي والعشرين هو معمل التجارب الذي يعتبر فيه المؤلف نظريته المركزية والنظريات الفرعية المكونة لها والمشتقة منها، فإن الكتاب يمكن النظر إليه أيضا كمحاولة لكتابة تاريخ القوى العظمى في العصر الحديث. ولا شك في أن تاريخ القوى العظمى وتاريخ الحروب، خاصة الحروب الكبرى، يستهوي قطاعا كبيرا من القراء. وكل ما أتمناه هو أن يكون الكتاب ممتعا وكاشفا للقارئ غير المتخصص، ومرجعا علميا دائما للقارئ والكاتب المتخصص في العلوم السياسية والعلاقات الدولية.

المترجم

تصدير (*)

Preface

شهد القرن العشرون قدرا كبيرا من العنف الدولي، إذ لقي حوالي تسعة ملايين شخص حتفهم في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) على ساحات المعارك الأوروبية، وقُتل حوالي خمسين مليون شخص في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، أكثر من نصفهم من المدنيين. وقور انتهاء الحرب العالمية الثانية، عمّت الحرب الباردة الكرة الأرضية كلها. ومع أن الاتحاد السوفيتي وحلفاءه في حلف وارسو لم يدخلوا في حرب مباشرة ضد الولايات المتحدة وحلفائها في منظمة حلف شمال الأطلسي في أثناء هذه المواجهة، فقد لقيت ملايين كثيرة حتفها في الحروب التي شنت بالوكالة عن الطرفين في كوريا وفيتنام وأفغانستان ونيكاراغوا وأنغولا والسلفادور وأماكن أخرى. كما قُتل ملايين البشر كذلك في هذا القرن في حروب أصغر، وإن كانت لا تقل عنفا، منها النزاعات الروسية-اليابانية في عامي ١٩٠٤-١٩٠٥ وفي عام ١٩٣٩، وتدخل الحلفاء في الحرب الأهلية الروسية من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٠، والحرب الروسية- البولندية في عامي ١٩٢٠-١٩٢١، والحروب العربية-الإسرائيلية المختلفة، والحرب الإيرانية-العراقية في أعوام ١٩٨٠-١٩٨٨.

(*) على طول صفحات الكتاب، يشير الرقم المرفوع بين قوسين معقوفين □ إلى هوامش الكتاب التي جمعها المؤلف بعد المتن، بينما يشير الرقم المرفوع بين قوسين هلاليين () إلى الهوامش التوضيحية التي ذُيل بها المترجم صفحات الكتاب للمترجم.

وستواصل دورة العنف التي اجتاحت القرن العشرين في الألفية الجديدة بالتأكيد، إذ من غير المرجح أن تتحقق آمال السلام، لأن القوى العظمى التي تؤلف النظام الدولي تخاف إحداها من الأخرى، وبالتالي تتنافس على القوة، ذلك أن الهدف النهائي لكل منها هو أن تبلغ مكانة القوة المهيمنة على القوى الأخرى، لأن بلوغ تلك المكانة يعد الوسيلة المثلى لضمان بقاء هذه القوى. فالقوة تضمن الأمان، والقوة الأعظم تمثل الضمان الأعظم للأمان. ومن المحتم أن تصطدم الدول التي يجرعها هذا الدافع، لأنها تتنافس جميعا على تحقيق إحداها ميزة على الأخرى. وهذا الموقف المأساوي لا مناص منه، إلا إذا اتفقت الدول التي تؤلف النظام على تشكيل حكومة عالمية. لكن هذا التحول الضخم لا يزال بعيد المنال، ولذلك ستظل النزاعات والحروب حتما السمات الكبرى والباقية للسياسة العالمية.

يستطيع الواحد منكم أن يتحدى هذه الرؤية المتشائمة بالقول بأن القرن العشرين انتهى بسلام بانتهاء الحرب الباردة، وأن العلاقات بين القوى العظمى كانت سلمية تماما مع دخول القرن الحادي والعشرين. وتلك ملاحظة صحيحة فعلا، لكن التنبؤ بالمستقبل من خلال الاستنتاج من اللحظة الراهنة وحسب لا يقدم تحليلا سليما.

انظر مثلا ما توصل إليه المراقب الأوروبي في مطلع القرنين السابقين باتباع مقارنة التنبؤ بالمستقبل انطلاقا من اللحظة الراهنة وحسب. كانت أوروبا في عام ١٨٠٠ في غمرة الحروب الثورية الفرنسية والناپليونية التي دامت ثلاثة وعشرين عاما (١٧٩٢-١٨١٥) وتورطت فيها كل القوى العظمى عصرذاك. كان الاستنتاج تأسيسا على ذلك العام الدامي يؤكد للمراقب أن القرن التاسع عشر سيكون حافلا بتزاعات القوى العظمى، في حين جاء هذا القرن الأقل في النزاعات في التاريخ الأوروبي. وفي المقابل لم يشهد العام ١٩٠٠ حربا في أوروبا تضم أيًا من القوى العظمى، ولم تكن ثمة أدلة تنذر بأن حربا من هذا النوع على الأبواب. وبالاستنتاج من ذلك العام الهادئ، لم

يمكن أحد يتوقع نشوب نزاعات في أوروبا في القرن العشرين ، فيما حدث العكس كما نعلم جميعا.

تقدم النظريات العامة للسياسة الدولية أدوات مفيدة للتنبؤ بما ستأتي به الأيام. فمن شأن النظريات المفيدة من هذا النوع أن تصف الطريقة التي تتصرف بها إحدى القوى العظمى عادة نحو الأخرى وأن تفسر سلوكها. ومن شأن النظريات المفيدة أيضا أن تفسر الطريقة التي تصرفت بها القوى العظمى في الماضي ، بما في ذلك تفسير لماذا كانت بعض الفترات التاريخية أكثر عنفا من غيرها. والنظرية التي تلي هذه المتطلبات وتساعدنا في فهم الماضي يمكن أن تعيننا أيضا على النظر إلى المستقبل والتنبؤ به.

أعرضُ في هذا الكتاب نظرية تتوفر فيها تلك السمات. ونظريتي التي أسميها "الواقعية الهجومية" offensive realism نظرية واقعية في طبيعتها، وتندرج بالتالي ضمن تقاليد المفكرين الواقعيين من أمثال إ. ه. كار E. H. Carr وهانز مورجنثاو Hans Morgenthau وكينيث ولتز Kenneth Waltz. تتميز هذه النظرية بأن عناصرها قليلة ويمكن تكثيفها في عدد صغير من الفرضيات البسيطة. فأنا - على سبيل المثال - أؤكد أن القوى العظمى تسعى إلى تعظيم نصيبها من القوة العالمية، وأدفع أيضا بأن النظم متعددة الأقطاب التي تضم دولة أقوى من الدول الأخرى، أي دولة مهيمنة كامنة potential hegemon، تكون أكثر عرضة للحرب من النظم الأخرى.

ستكون هذه الفرضيات وغيرها مما سيرد في هذا الكتاب مثيرة للجدل بالتأكيد. ولذلك سأحاول، من أجل الدفاع عن هذه الفرضيات، أن أبين سلامة المنطق الذي تستند إليه. وسأختبر هذه الفرضيات في مقابل السجل التاريخي، مقتصرًا بالدرجة الأولى على العلاقات بين القوى العظمى بداية من عام ١٧٩٢. وأخيرا سأستخدم النظرية للتنبؤ بالشكل المستقبلي المرجح لعلاقات القوى العظمى.

لقد كتبتُ هذا الكتاب لكل من الزملاء الأكاديميين والقراء المهتمين بفهم العوامل الرئيسة التي تدفع سلوك القوى العظمى. ولذلك اجتهدتُ في أن يأتي العرض واضحا

وسهلا في الفهم على الأشخاص غير الملمين باللغة المتخصصة والسجلات داخل
الجماعة العلمية. كما حرصتُ على ألا أسهو عن النصيحة التي وجهها ذات مرة دارس
الأدب ليونيل تريلنج Lionel Trilling لعالم الاجتماع البارز رايت ميللز Wright
Mills: "عليك أن تفترض أن بعضهم طلب منك أن تلقي محاضرة حول موضوع
تعرفه جيدا أمام جمهور من الأساتذة والطلاب من كل أقسام جامعة مرموقة، فضلا
عن مجموعة من الأشخاص المهتمين القادمين من مدينة قريبة. افترض أن هذا الجمهور
أمامك وأن من حقهم أن يتعلموا، وافترض أنك تريد تعلمهم، وعندئذ يمكنك أن تبدأ
بالكتابة". وكل ما أمله هو أن يجد القارئ أن حرصي على اتباع هذه النصيحة قد أثمر.